

حروب الأفيون ونهاية سياسة العزلة

من الواضح ان هذه الحروب استمدت تسميتها من تجارة الأفيون التي فرضتها بريطانيا على الصين، والتي كانت السبب المباشر لقيام هذه الحرب . فمنذ اواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، شهدت الدول الأوروبية، ولاسيما بريطانيا، تطورا صناعيا كبيرا، استدعى توفير المزيد من المواد الأولية اللازمة لادامته، وأسواقا كبرى لتصريف منتجاته . ونتيجة لذلك ازدادت توجهات بريطانيا نحو الصين، التي تمتاز بكثرة أعداد سكانها وأسواقها الواسعة، ووفرة المواد الولية، والأيدي العاملة الرخيصة غير أن توجهات بريطانيا اصطدمت بسياسة العزلة التي اتبعتها الصين، ونظام الكوهونغ في كانتون الذي اشرفنا اليه سابقاً . فضلا عن نظام الاكتفاء الذاتي الذي سارت عليه الصين مدة طويلة، لذلك فإنها مارست التجارة الخارجية مع الدول الأجنبية ضمن أطار محدود، فعلى الرغم من أنها كانت تصدر للدول الأوروبية الشاي والحريير والمنسوجات القطنية والخزف الفاخر وغيرها لكنها لم تكن تستورد منها سوى القليل . وعلى الرغم من جودة المنسوجات البريطانية لكنها لم تحظ بالقبول، إذ كان الصينيون يفضلون منتوجات بلادهم، لذلك تحتم على الإنكليز أن يسددوا أثمان مشترياتهم بالفضة، التي كانت قاعدة للمبادلات الدولية في ذلك الوقت، فتحوّلت تجارة شركة الهند الشرقية في الصين الى تجارة خاسرة وللتعويض عن هذه الخسارة، اندفع الإنكليز للترويج لتجارة الأفيون في الصين، وتعويد السكان على استخدامه لأغراض المتعة وليس للتداوي، كما كان معروفا في السابق.

والواقع ان تجارة الأفيون لقيت إقبالا واسعا في الصين، إذ ازداد الإقبال عليه وإدمانه في أول الأمر من الأثرياء، ثم انتقل الى الطبقات الأخرى في المجتمع . وقد تركت هذه التجارة أثارا اقتصادية واجتماعية سيئة على المجتمع، إذ إستنزفت موارده المالية، حتى وصل الأنفاق على هذه التجارة في عام 1839 الى 100 مليون تاييل في حين ان موارد الخزينة لم تكن تتجاوز 40 مليون تاييل . وأخذت هذه النسبة بالتزايد في السنوات اللاحقة وأدت الى حدوث أزمة مالية أسفرت عن ارتفاع سعر صرف العملة الفضية بالعملة النحاسية . وانعكست هذه الأزيمة بصورة مباشرة على دافعي الضرائب من الفلاحين والحرفيين، الذين كان يتوجب عليهم دفع الضرائب بالعملة الفضية، في حين انهم كانوا يتقاضون أجورهم بالعملة النحاسية . ولم تتوقف آثار هذه التجارة عند هذا الحد بل تعدتها الى النواحي الصحية والأخلاقية والإدارية نظرا لانتشار عادة إدمانه بين الموظفين والجنود ايضا.

وعلى الرغم من محاولات الحكومة وضع حد لهذه التجارة بإصدار مراسيم تمنع المتاجرة به او زراعته داخل الصين، الا ان أحداً لم يلتزم بذلك . بمن في ذلك موظفي الحكومة الذين هالهم ما كانوا يحصلون عليه من أرباح ضخمة من هذه التجارة، والتجار الأجانب الذين حققوا هم أيضا أرباح كبيرة جدا . حتى ظهر تيار داخل الحكومة الصينية تزعمه حاكم كانتون لين تسي هسو (1785-1850) المعروف بأمانته وإخلاصه، دعا الى منع هذه التجارة ولو بالقوة.

كما تعد العوامل السياسية سبباً مهماً في اندلاع هذه الحرب، ولاسيما أنها ارتبطت بتمسك الصين بنظرية إمبراطورية الوسط، في التعامل مع الدول الأجنبية . فمن وجهة نظر الصينيين ان إمبراطوريتهم هي مركز العالم ويجب على بقية الدول الخضوع لها وعلى شعوبها الذي عدهم الصينيون (برابرة)، ان يقدموا الجزية لإمبراطورهم ابن السماء . وعلى سفرائهم أداء مراسيم الكوتو أي السجود ثلاث مرات لدى مثلهم أمام الإمبراطور . وبموجب ذلك فإنه ليس من حق أي دولة أخرى ان تطالب بإقامة علاقات دبلوماسية مع الصين، مادامت تعد كل الدول الأخرى أتباعاً لها حسب نظرية امبراطورية الوسط.

كان من نتيجة ذلك ان فشلت الجهود الدبلوماسية التي بذلتها الدول الأوروبية، ولاسيما بريطانيا، في إقامة علاقات دبلوماسية وتوقيع اتفاقيات تجارية مع الصين . فمنذ عام 1787، ارسلت بريطانيا بعثة دبلوماسية برئاسة اللورد كاتكارت، الذي توفي قبل ان يصل الصين، فرجع افراد البعثة دون تحقيق اهدافها . ومع ذلك أرسلت بريطانيا بعثات أخرى، في عام 1793 بعثة برئاسة اللورد مكارتي . أخرى في عام 1816 برئاسة اللورد امهرست، وذلك بهدف إقامة علاقات دبلوماسية مع الصين، وتوقيع اتفاقيات تجارية، غير ان كلا البعثتين فشلت في تحقيق اهدافها، واعلنت الصين رسمياً أنها سترفض استقبال اي بعثة دبلوماسية انكليزية في المستقبل . ولاسيما بعد رفض ممثلوها اداء مراسيم الكوتو لدى مثلهم امام الامبراطور. فكانت هذه نهاية الجهود الدبلوماسية البريطانية، فاخذ البريطانيون يتحينون الفرصة للانقضاض على الصين ووضع حد لسياسة العزلة، ولاسيما بعد أن ألغت الحكومة البريطانية إمتياز شركة الهند الشرقية في احتكار تجارة آسيا عام 1834.

والواقع ان شعور بريطانيا بقوتها، ومركزها الدولي وكرامتها، وحاجتها لاسواق الصين الواسعة، والتصادم في وجهات النظر بينها وبين الصين المتمسكة بنظرية إمبراطورية الوسط، جعلتها تتدفع لفرص سيطرتها الاستعمارية. بعد ان نفذ صبرها ولم يعد أمامها سوى الخيار العسكري لتحقيق أهدافها، فكان من نتيجة ذلك اندلاع حرب الأفيون الأولى(1839-1842)، وحرب الأفيون الثانية (1856-1860)، اللتين أسفرتا عن هزيمة الصين وتكبيلاها بسلسلة معاهدات غير متكافئة.فقد أدت هزيمة الصين في حرب الأفيون الأولى الى تكبيلاها بمعاهدة نانكينج (المعاهدة البريطانية . الصينية) والتي وقعت في 29 آب 1842 ونصت على ما يأتي:

- 1- تقوم الصين بفتح خمسة موانئ للتجارة البريطانية وهي فوشو، اموي، كانتون، ننجبو، وشنغهاي، وان تضمن بريطانيا حق إقامة رعاياها ومؤسساتهم فيها.
- 2- تتنازل الصين لبريطانية عن جزيرة هونغ كونغ بصورة نهائية.
- 3- فرض غرامة مالية على الصين قدرهغ 21 مليون دولار.
- 4- يتمتع الرعايا البريطانيون بحق الدولة الأولى بالرعاية.
- 5- إعفاء رعايا بريطانية من الخضوع للقانون الصيني.
- 6- تخفيض قيمة التعريفه الكمركية على البضائع المستوردة الى (5) بالمئة فقط.

وعلى غرار هذه المعاهدة تم توقيع المعاهدة الامريكية الصينية (وانجهايا) في عام 1844، والتي أضيفت لها بعض الامتيازات البحرية . اما المعاهدة الصينية الفرنسية (وامبوا) التي وقعت عام 1844، فقد حصلت فرنسا

بموجبها على ما تمتعت به بريطانيا والولايات المتحدة من امتيازات، مع حق التبشير بالمسيحية . وحصلت كل من بلجيكا والبرتغال والنرويج والسويد على حق المتاجرة مع الصين وعلى امتيازات مشابهة لما ورد في المعاهدة الصينية. الامريكية غير ان بريطانيا وفرنسا شعرت بمرور الوقت بان ما حصلت عليه من امتيازات في هذه المعاهدة لا يرضي طموحها، إذ أنها لم تستطع ان تنفذ الى المناطق الداخلية في الصين، ولم تتمكن من إقامة تمثيل دبلوماسي لها في بكين على الرغم من المحاولات الدبلوماسية التي بذلتها بالاشتراك مع الولايات المتحدة، في السنوات اللاحقة وفي ضوء ذلك استغلت بريطانيا حادث إلقاء السلطات الصينية القبض على قارب صيني يدعى (لوركا . أور أي السهم)، الذي كان يرفع العلم البريطاني، وصادف انه وقع في مخالفات قانونية، فاعتبرت بريطانيا ذلك إهانة لها، في حين تذرعت فرنسا بمقتل احد المبشرين، فأعلنتنا حرب الأفيون الثانية والتي أسفرت عن توقيع معاهدات عدة غير متكافئة أهمها:

معاهدات تيانجين 1858

أسفرت هذه الحرب عن تجدد هزيمة الصين وإذلالها وإجبارها على توقيع هذه المعاهدات مع بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الامريكية، وقد نصت هذه المعاهدات على ما يأتي:

- أ- حق الدول الغربية في فتح سفارات لها في بكين وحرية انتقال المبشرين في البلاد.
- ب- حق الملاحة في نهر اليانغتسي، واطافة احد عشر ميناءا للمتاجرة وإقامة التجار الاجانب فيها بما في ذلك موانئ اليانغتسي.
- ج- إعفاء الاوربيين من الخضوع للقضاء الصيني، وتشكيل محاكم مختلطة للنظر في الخلافات التي تقع بين الصين والاجانب.
- د- تخفيض قيمة الضرائب على السلع الاجنبية الى (2.5) بالمئة وفرض غرامة حربية على الصين مقدارها 8 ملايين تاييل، وكف الصينين عن إطلاق اسم البرابرة على الاجانب، وقد بقي هذا الاسم مستخدما حتى عام 1860.

اتفاقيات بكين

إمعاناً في إذلال الصين اشترطت هذه الدول ان تجري المصادقة على معاهدات تيانجين في العام القابل في بكين غير ان تتصل الصين من المصادقة على هذه المعاهدات قاد الى تجدد الحرب، ودخول القوات المتحالفة الى بكين وهرب الامبراطور الصيني شيان فنج (1850-1861) الى العاصمة الصيفية جيهول، وارغام الصين على توقيع اتفاقيات بكين في 24 تشرين الاول 1860، مع بريطانيا وفرنسا . وقد أكدت هاتان الاتفاقيتان بنود معاهدات تيانجين، وسمحت للدول الاجنبية بفتح سفاراتها في بكين، واضيف ميناء تيانجين الى موانئ

المعاهدات، وتنازلت الصين لبريطانيا عن شبه جزيرة كولون في مقاطعة قوانغدونغ الواقعة على الساحل المواجه لهونغ كونغ، والسماح للمبشرين باستئجار او شراء الاراضي في أية مقاطعة، كما أقرت هذه الاتفاقيات تجارة (الكولي) اي العمال الصينيين. وبناءا على طلب الدول الأجنبية تم تأسيس أول دائرة صينية للشؤون الخارجية في عشرين كانون الثاني 1861 وعرفت بـ (الإدارة العامة للشؤون المتعلقة بالأمم الأجنبية) وأطلق عليها الصينيون اسم (تسونغ لي يامن).

ومن دون شك ان هذه الحروب وما تلاها من توقيع معاهدات غير متكافئة، كشفت مدى ضعف حكومة المانشو وتخلف مؤسست الدولة فكان والحال هذا لابد ان يترك تطبيق بنود هذه المعاهدات آثاراً كبيرة في الوضع الداخلي بنواحيه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وعلى النحو الآتي: